

المكتبة الجماهيرية

٣

الأعمال الكاملة

للشيخ البليغ، المجاهد الشهيد، القائد المحرض

أبي حسيب اللبدي

حسن محمد قائد

والذي قُتِلَ شهيداً بعبارة صليبية غادرة في وندريسكان على الحدود
الأفغانية الباكستانية، في شهر رجب ١٤٣٣هـ / يونيو ٢٠١٢م

حَقَّقَهُ وَجَمَعَهُ وَخَرَّجَ أَحَادِيثَهُ وَعَلَّقَ عَلَيْهِ:

أبو عبد الرحمن الزبير الغزوي

« غفر الله له وخطمه بالشهادة في سبيله »

دار الكتاب العالمي

الأعمال الكاملة للشيخ المحب الشهيد

أبي حسيب اللبدي

الأعمال الأكلية

للشيخ البليغ المجاهد الشهيد القائد المحض

حسن محمد قائد

أبي يحيى اللبيني

كل الحقوق محفوظة

الطبعة الثانية

١٤٤٦ هـ / ٢٠٢٤ م

الطبع والتجليد:

Step Ajans Matbaa Ltd. Şti

Göztepe Mah. Bosna Cad. No: 11 Bağcılar / İstanbul Tel: 0212 46808426

Sertifika No: 45522

النشر والتوزيع: دار الكتاب العالمي

عنوان دار الكتاب العالمي: تركيا - استانبول - العمرانية

Yamanevler Mah. Küçüksu Cad. Bildircin Sok. No: 9 Dükkan: 1

Ümraniye / İstanbul

رقم الهاتف والتواصل:

00905397626695

bilgi@kureselkitap.com

www.kureselkitap.com

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الأعمال الكاملة

للشيخ البليغ، المجاهد الشهيد، القائد المحرض

أبي محمد علي بن أبي الليث

حسن بن محمد قاسم

رحمته الله

والذي قتل شهيداً بعبارة صليبية غادرة في وريستان على الحدود

الأفغانية الباكستانية، في شهر رجب ١٤٣٣هـ / يونيو ٢٠١٢م

حقيقه وجمعه وخرج أحاديثه وعلق عليه :

أبو عبد الرحمن بن أبي الغزي

« غفر الله له وختم له بالشهادة في سبيله »

الأعمال الأكلية

للشيخ البليغ، المجاهد الشهيد، القائد المحرض

أبي يحيى اللبني

حسن محمد قائد

الرَّيُّونُ وَمَسِيرَةُ النَّصْرِ
قوة... همة... صبر... توبة...
دعاء... ففتح وجنة

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ فَبِهِدْنَهُمْ أَقْتَدُ﴾

تاريخ نشر الكتاب:

ربيع الآخر ١٤٢٢ هـ

٢ - ٢٠١١ م

دار الكتاب العالمي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله وعلى آله وصحبه ومن والاه وبعد...

فمما لا شك فيه أن الأحوال والأحداث التي يمر بها المجاهدون في هذه المرحلة تستوجب منا تفكيراً عميقاً في أمورنا، وتأملاً تاماً في أحداثنا، ونظراً متجرداً في مستجداتنا، وتقليباً لصفحات مجرياتنا، من غير تهويلٍ ولا غفلةٍ، حتى نستطيع أن نستوعب استيعاباً صحيحاً كل المجريات الطارئة التي لم تزل تتجدد وتتعدد، فعندها يمكن أن نقف على الداء، وندرك ما هو المطلوب منا عملياً لتجاوز كل عقبة ونواصل مسيرتنا الجهادية المباركة من غير كلل ولا ملل ولا تردد ولا ضعفٍ أو تهاون، فالحوادث العظام لا يدعها العقلاء تمرُّ عليهم من غير تدبرٍ واعتبارٍ، بل يستخلصون عبرها ويستنتجون دروسها فيتخذونها زاداً يشدُّون به من أزرهم ويسدُّون ثغراتهم فيقطعون فيافي الزمن ويتجاوزون عقبات الأحداث واحدةً، واحدةً؛ حتى يبلغوا المنتهى على أتم حالٍ وأنفعه لهم في الدنيا والآخرة.

ولذا أحببت أن ندخل هذه القضية من خلال آية عظيمة في كتاب الله تعالى الذي أنزله الله سبحانه رحمةً وشفاءً للمؤمنين، وجعله تبياناً لكل شيء كما قال ﷺ: ﴿يَأْتِيهَا النَّاسُ قَدْ جَاءَتْكُمْ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَشِفَاءٌ لِّمَا فِي الصُّدُورِ وَهُدًى وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ﴾ [يونس: ٥٧]، وقال ﷺ: ﴿قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ﴾ [فصلت: ٤٤]، مُشَفِّعاً ذلك بما يتيسر من قبسات مشكاة المصطفى ﷺ، ومستأنساً بكلام لأئمتنا الأعلام ﷺ تعالى.

وسأجعل ذلك على صورة نقاطٍ مختصرةٍ قدر الإمكانٍ ومبيّنة ومركزة، إذ المقصود هو الوقوف على ما أمكن من التوجيهات والإرشادات القرآنية لتكون لنا نبراساً نسترشد به في طريقنا الذي نرجو أن يكون آخره جناتٌ ونهرٌ في مقعد صدقٍ عند مليكٍ مقتدر.. وأسأل الله الكريم السداد والتوفيق.

لما أشيع بين جيش المسلمين يومَ أحدٍ أن النبي ﷺ قد قتل، فتَّ ذلك في عضد كثيرٍ منهم، وتنوعت من هذا الحدث الجلل مواقفهم، ونطقت بعضُ الألسن بما لا ينبغي، إذ كان وقعه أعظم

مما يُتوقع لجسامته البالغة - وهو كذلك بلا شك -، لا سيما وقد نزلت تلك المصيبة بعد الانتصار الساحق والفتح المظفر الذي حققه المسلمون في غزوة بدرٍ حيث كانوا أقل عدداً وعدةً: ﴿وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرِ وَأَنْتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٢٣]، وبقي أهل الرسوخ والإيمان - كما هو دأبهم - أمام إعصار هذا الحادث ثابتين على سبيل الحق قولاً وعملاً مثبتين لمن تزلزل واضطرب ومقوين عزيمة من خار وانهار، فكانت الأقوال تجاه هذا الحدث مقسمةً بين أهل التربص والنفاق، وأهل الريب مرضى القلوب، وأهل اليقين والثبات:

فقال بعضهم: «ليت لنا رسولاً إلى عبد الله بن أبيّ، فيأخذ لنا أمانةً من أبي سفيان!! يا قوم، إن محمداً قد قتل، فارجعوا إلى قومكم قبل أن يأتوكم فيقتلوكم».

وقال بعضهم: «والذي نفسي بيده، لئن كان النبي ﷺ قُتل، لنعطينهم بأيدينا، إنهم لعشائرتنا وإخواننا!».

وقال ناسٌ من أهل الارتياب والمرض والنفاق، يوم فرّ الناس عن نبي الله ﷺ وشجّ فوق حاجبه وكسرت ربايعيته: «قتل محمد، فالحقوا بدينكم الأول!»^(١).

- وقال أناس من عليّة أصحاب نبي الله ﷺ: «قاتلوا على ما قاتل عليه محمدٌ نبيكم حتى يفتح الله لكم أو تلحقوا به»^(٢).

- وقال بعضهم: «إن كان محمد قد قتل، فقد بلغ، فقاتلوا عن دينكم»^(٣).

فأنزل الله ﷻ إثر ذلك الاضطراب الذي حصل لجيش المسلمين بشيوع مقتل النبي ﷺ: ﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَىٰ أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَىٰ عَقْبَيْهِ فَلَنِ يَصُرَّ اللَّهُ شَيْئاً وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٤].

قال الإمام ابن جرير ﷺ: «... ثم قال لأصحاب محمد، معاتبهم على ما كان منهم من الهلع

(١) انظر النقولات الثلاثة في: تفسير الطبري: (٢٥٨/٧).

(٢) تفسير الطبري: (٢٥٣/٧).

(٣) تفسير مجاهد: (ص ٢٦٠) وتفسير الطبري: (٢٥٣/٧).

والجزع حين قيل لهم بأحد: «إنَّ محمدًا قتل»، ومُتَّبِعًا إليهم انصرافَ من انصرفَ منهم عن عدوهم وانهزاهم عنهم: أفئذ مات محمد أيها القوم، لانقضاء مدة أجله، أو قتله عدو ﴿أَنْقَلَبْتُمْ عَلَيَّ أَغْقَبِكُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٤]؛ يعني ارتددتم عن دينكم الذي بعث الله محمدًا بالدعاء إليه ورجعتم عنه كفارًا بالله بعد الإيمان به، وبعد ما قد وَضَّحْتَ لكم صحَّةَ ما دعاكم محمد إليه، وحققةً ما جاءكم به من عند ربه..» (١).

وقال العلامة السعدي رحمته الله: «وفي هذه الآية الكريمة إرشاد من الله تعالى لعباده أن يكونوا بحالة لا يززعهم عن إيمانهم أو عن بعض لوازمه فقدُ رئيسٍ ولو عظم، وما ذاك إلا بالاستعداد في كل أمر من أمور الدين بعدة أناسٍ من أهل الكفاءة فيه، إذا فقد أحدهم قام به غيره، وأن يكون عموم المؤمنین قصدهم إقامة دين الله، والجهاد عنه، بحسب الإمكان، لا يكون لهم قصد في رئيس دون رئيس، فبهذه الحال يستتب لهم أمرهم، وتستقيم أمورهم» (٢).

وكان من الآيات التي أنزلت في هذا الصدد تعليمًا للصحابة رضي الله عنهم، وتصبيرًا لهم، وحثًا للائتساء بمن سبقهم قوله صلى الله عليه وسلم: ﴿وَكَايِنَ مِّن نَّبِيِّ قَتَلَ مَعَهُ رَبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا أَسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ ﴿١٤٦﴾ وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ ﴿١٤٧﴾ فَآتَاهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦-١٤٨].

فالآية مرتبطة بما سبقها وإن تخللها آيةٌ، والسياق واضح الدلالة على ذلك، والترابط بينهما واتحاد موضوعهما في غاية البيان، كما قال الإمام ابن جرير رحمته الله: «لأن الله صلى الله عليه وسلم إنما عاتب بهذه الآية والآيات التي قبلها من قوله صلى الله عليه وسلم: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ﴾، الذين انهزموا يوم أحد، وتركوا القتال، أو سمعوا الصائح يصيح: «إنَّ محمدًا قد قتل»؛ فعذلهم الله

(١) تفسير الطبري: (٧ / ٢٥١).

(٢) تفسير السعدي: (١٥٠).

ﷺ على فرارهم وتركهم القتال فقال: أفائن مات محمد أو قتل، أيها المؤمنون، ارتددتم عن دينكم وانقلبتم على أعقابكم؟ ثم أخبرهم عما كان من فعل كثير من أتباع الأنبياء قبلهم، وقال لهم: هلا فعلتم كما كان أهل الفضل والعلم من أتباع الأنبياء قبلكم يفعلونه إذا قتل نبيهم؛ من المضي على منهاج نبيهم، والقتال على دينه أعداء دين الله، على نحو ما كانوا يقاتلون مع نبيهم، ولم تهنوا ولم تضعفوا، كما لم يضعف الذين كانوا قبلكم من أهل العلم والبصائر من أتباع الأنبياء إذا قتل نبيهم، ولكنهم صبروا لأعدائهم حتى حكم الله بينهم وبينهم»^(١).

وقد ذكر العلماء في الآية معاني عدة بناءً على الاختلاف في قراءة قوله تعالى: (قاتل) أو (قتل)، إلا أن المعنى العام للآية كما قال العلامة رشيد رضا رحمته الله: «والمعنى: أن كثيراً من النبيين الذين خلوا قد قاتل معهم كثير من المؤمنين بهم المنتسبين إلى الرب تعالى في وجهة قلوبهم وفي أعمالهم، المعتقدين أن النبيين والمرسلين هداة ومعلمون لا أرباب معبودون، فما وهنوا لما أصابهم في سبيل الله أي ما ضعف مجموعهم بما أصاب بعضهم من الجرح وبعضهم من القتل وإن كان المقتول هو النبي نفسه؛ لأنهم يقاتلون في سبيل الله وهو ربه لا في سبيل شخص نبيهم وإنما حظهم من نبيهم تبليغه عن ربه وبيانه لهدايته وأحكامه **﴿وَمَا نُرْسِلُ الْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ﴾** [الكهف: ٥٦]، وما ضعفوا عن جهادهم ولا استكانوا ولا ولوا بالانقلاب على أعقابهم بل ثبتوا بعد قتل نبيهم كما ثبتوا معه في حياته؛ لأن علة الثبات في الحاليين واحدة وهي كون الجهاد في سبيل الله أي في الطريق التي يرضاها الله كحفظ الحق وحمايته، وتقرير العدل وإقامته، وما يتبع ذلك ويلزمه»^(٢).

ومن هنا فنحاول أن نقف وقفات عند هذه الآيات الكريمات، وربط معانيها بما نحن فيه بما

يفتح الله تعالى:

(١) تفسير الطبري: (٧ / ٢٦٤).

(٢) تفسير المنار: (٤ / ١٧١).

الرفقة الأولى

أن كثرة قتل القادة والأمراء والخيار من العلماء والصلحاء وغيرهم في الجهاد أمرٌ واقعٌ فيما مضى ومنتوقٌ في كلِّ حينٍ وهو بمجردة لا يدلُّ على انحرافِ الطريقِ التي يسلكونها، بل لو قيل بالعكس لما كان بعيداً، فقله ﷺ: ﴿وَكَايِنَ مِّنْ نَّبِيٍّ قُتِلَ مَعَهُ رِبِّيُونَ كَثِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، ذكر فيه العلماء عدة معانٍ لا يخرج مجموعها عن الدلالة على كثرة وقوع القتل سواء في حق الأنبياء عليهم الصلاة والسلام أم في حق جيوشهم وأتباعهم، فإذا كان هذا في شأن الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وهم المؤيِّدون فلأنَّ يُتوقع في غيرهم أولى وأحرى، فقله ﷺ: ﴿وَكَايِنَ﴾ [آل عمران: ١٤٦] يدل على أن هذا وقع كثيراً متكرراً، ولم يكن حادثة نادرة في موقعة عابرة، أي كم من نبيٍّ قُتِلَ في المعركة أو في غيرها وقُتِلَ معه ربيون كثير فمن بقي منهم ثبت ولم يهن ولم يضعف واستمر على ما كان عليه إخوانه، أو كم من نبيٍّ قاتل بنفسه وقُتِلَ معه ربيون كثير، أو كم من نبيٍّ قُتِلَ وقاتل معه ربيون كثيرٌ فما أثر قتل النبي في أتباعه بحيث نكصوا على أعقابهم، فالمقصود أن الدلالة على كثرة حصول القتل بينهم بيّنة في الآية.

قال الثعلبي النيسابوري ﷺ: «ومن قرأ ﴿قُتِلَ﴾ فله ثلاثة أوجه:

أحدها: أن يكون القتل واقعاً على النبي وحده؛ وحينئذ يكون تمام الكلام عند قراءة ﴿قُتِلَ﴾ فيكون في الآية إضمار معناه ومعه ﴿رِبِّيُونَ كَثِيرٌ﴾ كما يقال: قتل الأمير معه جيش عظيم، أي ومعه، ويقول: خرجتُ معي تجارة، أي ومعني.

والوجه الثاني: أن يكون القتل نال النبي ومعه من الربيين، ويكون وجه الكلام: قتل بعض من كان معه، تقول العرب: قتلنا بني تميم وبني فلان، وإنما قتلوا بعضهم ويكون قوله: ﴿فَمَا وَهَنُوا﴾ راجعاً إلى الباقيين الذين لم يقتلوا.

والوجه الثالث: أن يكون القتل للربيين لا غير»^(١).

وقال ابن الجوزي رحمته الله: «وفي معنى الربيين خمسة أقوال:

أحدها: أنهم الألوْف، قاله ابن مسعود، وابن عباس في رواية، واختاره الفراء.

والثاني: الجماعات الكثيرة، رواه العوفي عن ابن عباس، وبه قال مجاهد، وعكرمة والضحاك،

وقتادة، والسدي، والربيع، واختاره ابن قتيبة.

والثالث: أنهم الفقهاء والعلماء، رواه سعيد بن جبير، عن ابن عباس، وبه قال الحسن، واختاره

اليزيدي، والزجاج.

والرابع: أنهم الأتباع، قاله ابن زيد.

والخامس: أنهم المتألهون العارفون بالله تعالى، قاله ابن فارس»^(٢).

ولشيخ الإسلام رحمته الله كلامٌ طويل عن الآية يمكن مراجعته في مجموع الفتاوى: (٥٨/١)، وما

بعدها؛ بل قوله تعالى في الآية السابقة: ﴿أَفَأَيْنَ مَاتَ أَوْ قُتِلَ﴾ [آل عمران: ١٤٤] يشير إلى أن كلا الأمرين

كان ممكناً ومتوقَّعاً في حق سيد الخلق رحمته الله من موتٍ أو قتلٍ، كما قال شيخ الإسلام رحمته الله: «أي: ليس

مخلداً في الدنيا لا يموت ولا يقتل، بل يجوز عليه ما جاز على إخوانه المرسلين من الموت أو

القتل»^(٣).

وقد جمع الله لنبيه رحمته الله بين السعادة والشهادة إذ مات رحمته الله بالسُّم الذي جعل له في الشاة يوم خيبر

كما روى البخاري -تعليقاً- عن عائشة أم المؤمنين رحمته الله قالت: «كان النبي رحمته الله يقول في مرضه الذي

مات فيه: (يا عائشة ما أزال أجد ألم الطعام الذي أكلت بخير فهذا أوان وجدت انقطاع أبهري من

ذلك السم)»^(٤).

(١) الكشف والبيان: (٣ / ١٨١).

(٢) زاد المسير: (١ / ٤٢٦).

(٣) مجموع الفتاوى: (١٨ / ٢٦٧).

(٤) [صحيح البخاري: (٤٤٢٨)].

وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: «لأن أحلف بالله تسعاً: أن رسول الله ﷺ قتل قتلاً أحب إليّ من أن أحلف واحداً، وذلك بأن الله ﷻ اتخذه نبياً وجعله شهيداً»^(١)، وقال الزهري رضي الله عنه: «مات رسول الله ﷺ شهيداً»^(٢).

قال بعض العلماء: «والأبهر بفتح الهمزة والهاء بينهما موحدة: عرق يتعلق به القلب فإذا انقطع مات صاحبها، والسرف في ذلك أن ينضم له ﷺ مع النبوة درجة الشهادة»^(٣).

فإذا كان هذا في حق خير الخلق وأزكاهم وأحبهم إلى الله تعالى؛ فكيف بمن دونه من أتباعه؟ بل يُعدُّ هذا زيادة في درجاتهم وعلو منزلتهم كما قال شيخ الإسلام رحمته الله بعدما عدّد شيئاً مما أكرم الله به الشهداء: «فإذا كان هذا قتلى المؤمنين فما الظن بقتلى الأنبياء ففيه لهم ولأتباعهم من سعادة الدنيا والآخرة ما هو من أعظم الفلاح»^(٤).

ثم من المعلوم أن وقعة أحد حدثت في السنة الثالثة للهجرة؛ أي في أوائل تكوين الدولة الإسلامية فكانت إذ ذاك قليلة العدد، ومع ذلك قُتل فيها سبعون من الصحابة منهم سيد الشهداء وأسد الله ورسوله أحد قادة الإسلام حمزة بن عبد المطلب وغيره من الأخيار من المهاجرين والأنصار، وفقدان مثل هذا العدد في مثل هذه الحالة يُعدُّ كبيراً جداً، لا سيما وفيهم من الأبطال الذين كانت حاجة الإسلام إلى مثلهم أشد ما تكون بعدما نجم النفاق، وانتشى كفرة المشركين بنصرهم الموهوم في هذه الغزوة، مع تربص اليهود بالمسلمين وتحينهم لاقتناص الفرص ضدهم، ولهذا كان وقع مقتلهم على النبي ﷺ وصحابته عظيمًا، ولم يزل رسول الله ﷺ يذكرهم ويتذكرهم ويدعو لهم إلى قبيل موته.

ومع هذا كله فإن النبي ﷺ بادر في اليوم التالي للغزوة -والناس في مصابهم وجراحاتهم وقوة وقع

(١) رواه أحمد [٣٦١٧]، واللفظ له [٤٣٩٤]، وقال: «هذا حديث صحيح على شرط الشيخين ولم يخرجاه» [٤]، وغيرهما.

(٢) [دلائل النبوة للبيهقي: (٤/٢٦٤)].

(٣) شرح سنن ابن ماجه: (١/٢٥٤).

(٤) الجواب الصحيح: (٦/٤١٥).

الحدث عليهم- للخروج لملاحقة جيش أبي سفيان مُعلنًا بذلك أن جروح الأجساد ونقصان الأنفس وفقدان الأعبة وتراكم الهموم لا يوهن القلوب ولا يضعف العزائم ولا يُجلب الهزائم ولا يُزهد في الجهاد ولا يفت في الأعضاد أو يُبعد عن الجلال، ومعلمًا أمته أن مسيرة الجهاد مستمرة رغم الآلام كما سجّل القرآن ذلك المشهد العظيم الذي تقف أقلام الأدباء عاجزة عن توفيته حقّه مهما بلغت من البراعة والبلاغة قال الله تعالى: ﴿الَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِلَّهِ وَالرَّسُولِ مِنْ بَعْدِمَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا مِنْهُمْ وَاتَّقُوا أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ الَّذِينَ قَالَ لَهُمُ النَّاسُ إِنَّ النَّاسَ قَدْ جَمَعُوا لَكُمْ فَاخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَانًا وَقَالُوا حَسْبُنَا اللَّهُ وَنِعْمَ الْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾ فَأَنْقَلَبُوا بِنِعْمَةِ رَبِّهِمْ إِلَىٰ دِيَارِهِمْ فَأَتَىٰ خِيَابَ الْمَدِينَةِ وَالنَّاسُ يَكْفُرُونَ ﴿١٧٤﴾﴾ [آل عمران: ١٧٢-١٧٤].

وذلك في غزوة حمراء الأسد، وهذا الموقف من النبي ﷺ وصحابته الذين ندمهم للخروج -مع جراحاتهم- فاستجابوا ولم يتعدّوا يعدّ قمة في قوة العزيمة، وشدة الشكيمة، والتحرّم في الأمر، والجَلد في المصابرة، وسمو الهمة، ونفس التحدي والثقة التامة بالله ﷻ وحسن التوكل عليه وتفويض الأمور إليه، ولعمر الله إنه لدرس وأي درس، ومن تجرّع مرارة الهزيمة، وذاق آلام الجراح، من الضرب والرمي وطعن الرماح، وأطبقت عليه هموم فقدان الأحباب، وما لبث أن التقط أنفاسه ونال شيئًا من فرح النجاة من الموت وبلوغ المأمّن، فيدعى ثانيةً للنفير ولمّا يلتئم جرحه ويتوقف نزفه ويسترد قواه فيقوم -مع ذلك- مستجيبًا للأمر طيبةً نفسه -هذا مع التهويل من جموع العدو وإعادة كرّتهم- ليعلم حقًا قدر ذلك القرن الذي لو أنفق من بعدهم مثل أحد ذهبًا ما بلغ مد أحدهم ولا نصيفه، وهكذا ينبغي أن يكون أتباعهم المجاهدون [البحر: الكامل]

من بعدهم بين يدي مصائبهم والله المستعان.

فَتَشَبَّهُوا إِنْ لَمْ تَكُونُوا مِثْلَهُمْ إِنَّ التَّشَبُّهَ بِالْكَرَامِ فَالَاحُ (١)



الرفقة الثانية

أن كثرة القتل والجراح في الجهاد سواء في حق القادة أو عموم المجاهدين هو مصيبةٌ من المصائب، وهو في الوقت نفسه اختبارٌ يبتلي الله به عباده المؤمنين المجاهدين كما قال هنا: ﴿لَمَّا أَصَابَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، وقال في وقائع غزوة أحد: ﴿أَوْلَمَّا أَصَبْتَكُمْ مُصِيبَةً﴾ [آل عمران: ١٦٥]، وقال ﷺ: ﴿وَمَا أَصَابَكُمْ يَوْمَ التَّقَى الْجَمْعَانِ فَيَاذَنِي﴾ [آل عمران: ١٦٦]، وسمّاه قرحاً: ﴿مِنْ بَعْدِمَا أَصَابَهُمُ الْقَرْحُ﴾ [آل عمران: ١٧٢]، وقال أيضاً: ﴿إِنْ يَمَسَّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ﴾ [آل عمران: ١٤٠]، وهذا المصاب الذي نزل بالمؤمنين إنما هو باعتبار مجموعهم لا باعتبار جميعهم؛ أي أن القتل والجراح لم تُصب كل واحدٍ منهم وتلحقهم فرداً، فرداً، وإنما باعتبارهم كالجسد الواحد فقتل بعضهم يؤدي إلى همٍّ وغمٍّ وآلامٍ وأحزانٍ لغيرهم كما قال ﷺ: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٠٤].

وفي هذا إشارةٌ إلى قوة تلاحمهم وتعاضدهم وتراصصهم وموالاتهم لبعضهم وقوة مودتهم وتراحمهم واجتماع أمرهم حتى صاروا بذلك تماماً كجسدٍ واحدٍ إذا اشتكى منه عضوٌ تداعى له سائر الجسد بالحمى والسهر، فمصاب بعضهم مصاب كلهم، فمسهم القرح وشملهم الألم وعمتهم المصيبة، قال ابن عاشور ﷺ عن القرع الذي أصاب المسلمين يوم أحد: «وهو هنا مستعمل في غير حقيقته، بل هو استعارةٌ للهزيمة التي أصابتهم، فإن الهزيمة تشبه بالثلمة وبالانكسار، فشبهت هنا بالقرح حين يصيب الجسد، ولا يصح أن يراد به الحقيقة؛ لأن الجراح التي تصيب الجيش لا يعبأ بها إذا كان معها النصر، فلا شك أن التسلية وقعت عما أصابهم من الهزيمة»^(١).

(١) التحرير والتنوير: (٣/ ٢٢٨).

هذا مع أنه ورد عن بعض السلف تفسير القرع بالقتل والجراح التي أصابتهم في تلك الغزوة، ولكن -والله أعلم- يمكن أن يكون المعنى شاملاً لذلك كله حيث اجتمع عليهم فيها استشهاد بعضهم، وإصابة رسول الله ﷺ وعددٍ من الصحابة، ثم الانكسار بعد الانتصار كما قال ﷺ: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ أَخَذْتُمُ بِالْأَيْمَانِ أَنْ تُخِشُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَتُنَازِعُوا فِي الْأُمُورِ وَعَصَيْتُمْ مِنْ بَعْدِ مَا أَرَاكُمْ مَا تَكْبُرُونَ﴾ [آل عمران: ١٥٢].

وهذا القتل الذي يلحق المجاهدين من قادة وجنود يؤدي حتماً إلى نقصان عددهم، وخلو كثيرٍ من ثغرات الجهاد الملحّة ممن يقوم عليها كما تستحق؛ لأن الأولين ممن فركتهم المحن وعركتهم الأحداث وأنصجتهم التجارب ليسوا كالأخرين الذين هم في مبدأ الطريق، فيجتمع عليهم همُّ الفقد لإخوانهم وثقل ما تحملوه من أعباء بعدهم، والعجز عن توفية الأمور حقها وسد منافذها، لاتساع العمل وقلة من يقوم عليه، فيحصل بذلك ضيقٌ وشدةٌ وحرَجٌ مما يستوجب الصبر منهم، فهنا تظهر معادن الرجال، ويعرف من بكى ممن تباكى، وتتجلى قوة أهل الإيمان والثقة بالله المستيقنين بصحة ما هم عليه، الذين يزدادون بهذه الضائقة إيماناً وتصديقاً وتسليماً، فيجعلونها من زادهم على الطريق لا من المعوّقات التي يتعشرون عندها أو يتساقطون على حافتها أو يلفتون وجوههم عند معاينتها، تماماً كما قال تعالى عن السابقين الأولين الذين هم قدوة لمن لحقهم: ﴿وَلَمَّا رَأَى الْمُؤْمِنُونَ الْأَحْزَابَ قَالُوا هَذَا مَا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَصَدَقَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢].

قال الإمام ابن كثير ﷺ: «ومعنى قوله: ﴿وَمَا زَادَهُمْ﴾ [الأحزاب: ٢٢]؛ أي: ذلك الحال والضيق والشدة ﴿وَمَا زَادَهُمْ إِلَّا إِيمَانًا﴾ [الأحزاب: ٢٢] بالله، ﴿وَتَسْلِيمًا﴾ [الأحزاب: ٢٢]؛ أي: انقياداً لأوامره، وطاعة لرسوله»^(١).

فالله سبحانه يجعل ذلك نوعاً من الابتلاءات التي يُظهر بها الصابرين الثابتين، والمجاهدين الصادقين، كما قال ﷺ في تعداد ما يختبر به عباده -ومنها نقصان الأنفس-: ﴿وَلَا تَقُولُوا لِمَنْ يُقْتَلُ فِي

(١) تفسير ابن كثير: (٦ / ٣٩٢).

سَبِيلَ اللَّهِ أَمْوَاتٌ بَلَىٰ أَحْيَاءٌ وَلَكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ وَلَتَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ
وَالْأَنْفُسِ وَالْأَمْوَالِ وَالشَّمْرِ تَبَشِيرًا لِّلصَّابِرِينَ ﴿١٥٥﴾ [البقرة: ١٥٤-١٥٥].

قال ابن جرير رحمته الله: «ومعنى قوله: ﴿وَلَتَبْلُوَنَّكُمْ﴾ [البقرة: ١٥٥]، ولنختبرنكم... وقوله: ﴿بِشَيْءٍ مِّنَ
الْخَوْفِ﴾ [البقرة: ١٥٥]، يعني من الخوف من العدو، وبالجموع - وهو القحط - يقول: لنختبرنكم بشيء
من خوف ينالكم من عدوكم وبسنة تُصيبكم ينالكم فيها مجاعة وشدة، وتتعدى المطالب عليكم،
فتنقص لذلك أموالكم، وحروب تكون بينكم وبين أعدائكم من الكفار، فينقص لها عددكم،
وموت ذراريكم وأولادكم، وجُدوب تحدث، فتنقص لها ثماركم. كل ذلك امتحان مني لكم،
واختبار مني لكم، فيتبين صادقوكم في إيمانهم من كاذبيكم فيه، ويُعرف أهل البصائر في دينهم
منكم، من أهل النفاق فيه والشك والارتياب»^(١).

فليتأمل هذا الكلام جيداً ولينظر في المراحل التي يمر بها الجهاد والمجاهدون بين حين وحين
ليزداد به سالكو هذا الطريق إيماناً برهم وتيقناً بما هم عليه، فلا يتزعزعون أو يترددون، وليكونوا
من أهل البصائر في دينهم ويتميزوا عن المرتابين المضطربين من أهل النفاق ومرضى القلوب
الذين يعدون كل ذلك مغرمًا لا مغنم معه.

وقال رحمته الله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمِ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران:
١٤٢]، وقال رحمته الله: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُتْرَكُوا وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلَا
رَسُولِهِ وَلَا الْمُؤْمِنِينَ وَلِجَهَّةٍ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [التوبة: ١٦]، وقال عز من قائل: ﴿وَلَتَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ
نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنْكُمْ وَالصَّابِرِينَ وَتَبْلُوا أَمْوَالَكُمْ﴾ [محمد: ٣١].

وهذا يستوجب على كل من وفقه الله لسلوك سبيل الجهاد أن يوطن نفسه على هذا الأمر، ما بين
كثرة قتلى من الخيار، وقلة أموال، ونقص عتاد، وشدة حصار، واضطراب أحوال، وازدياد
إرجاف، وانتفاش عدو، ولوم لائمين، وعبث مفسدين، ولا يظننَّ ظانُّ أن موكب الجهاد يسير في

(١) تفسير الطبري: (٣ / ٢٢٠).

كل وقتٍ ومكانٍ على وتيرةٍ واحدةٍ من السعةِ والوفورِ والأمانِ وتوالي الفتوحاتِ وتتابع الانتصاراتِ وتيسر الأحوال؛ فيصطدم عند أولِ عقبةٍ ابتلاءٍ تعترضه فيظن بالله ظن السوء ويحسب أن الأمر قد ولى فيهلك نفسه بهذا الظنِّ، ويكون حاله كحال ضعاف الإيمان من قبله ممن قال الله ﷻ فيهم: ﴿بَلْ ظَنَنْتُمْ أَنْ لَنْ يَنْقَلِبَ الرَّسُولُ وَالْمُؤْمِنُونَ إِلَىٰ أَهْلِيهِمْ أَبَدًا وَزُيِّنَ ذَٰلِكَ فِي قُلُوبِكُمْ وَظَنَّتُمْ ظَنًّا سَوًّا وَكُنْتُمْ قَوْمًا بُورًا﴾ [الفتح: ١٢].

ثم يستجيب لداعي نفسه فتقوده إلى الخذلان ومستنقع الهوان ويحسب عندها أنه نجَّاهَا، فتراه حاملاً شبهاته حازماً أمتعته مولياً دبره ليعيش تحت منَّة الطغاة التي يفضل أهل عزة الإيمان وعلوّه أن يقتلوا مئة مرةٍ ولا يرضون بساعةٍ واحدةٍ تحت ذلِّهم الخادع ولو كان في فندقٍ من خمسة أنجم أو أكثر، فما يلبث ذلك المسكين أن تتشبع نفسه بالدعة وترضى بالسكون وتقنع بالركون وتتأقل إلى الأرض وتشبَّث بالعرض فتغشي بصيرته زهرتها فتراه -في فتنته- ينظر إلى مَنْ كان بين صفوفهم ونفسه توسوس له -وربما غلبته فنطق لسانه بمثلهما-: ﴿عَرَّ هَتُولَاءِ دِينُهُمْ﴾ [الأنفال: ٤٩]، نسأل الله السلامة والعافية والثبات: ﴿قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [النور: ٦٣].



الرفقة الثالثة

أن تلك المصائب التي تلحق المجاهدين، من كثرة القتل وشدة الجراح ونقصان الأنفس يُعد في أصله -بالنظر إليه مجرداً- من الأسباب الموجبة للهون والضعف والاستكانة، ولكن مع قوة الداعي لهذه الأمور من حيث الأصل إلا أن أهل الإيمان الراسخ والعزيمة الصادقة واليقين المتمكن لا ينقادون لذلك الموجب ولا يستسلمون له ولا يدعونه يغلب عليهم أو يهيمن على نفوسهم ولا يجعلونه مدعاةً للفشل والخور والإذعان لعدوهم، بل يدافعونه بقوة إيمانهم ويطردونه بشدة عزيمتهم ويبددونه بإخلاصهم فلا يبقى له محلٌّ في قلوبهم ولا يظهر له أثرٌ في أعمالهم، فلا تنطق الألسن بالتضجر ولا التذمر، ولهذا مدح الله ﷻ أولئك الربيين بقوله: ﴿فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ [آل عمران: ١٤٦].

قال الإمام ابن القيم ﷻ: «أخبر سبحانه أن جماعة كثيرة من أنبيائه قتلوا وقتل معهم أتباع لهم كثيرون، فما وهن من بقي منهم لما أصابهم في سبيله، وما ضعفوا، وما استكانوا، وما وهنوا عند القتل، ولا ضعفوا، ولا استكانوا، بل تلقوا الشهادة بالقوة، والعزيمة، والإقدام، فلم يستشهدوا مدبرين مستكينين أذلة، بل استشهدوا أعزة كراما مقبلين غير مدبرين»^(١).

فظهر من ذلك أن عدم الوهن والضعف والاستكانة كل ذلك عملٌ مكتسبٌ يمكن تحصيله؛ فيصبح المرء المسلم المجاهد عند حلول مثل تلك المصائب بين أن يستجيب لداعيها وينقاد لتأثيرها فتورثه ضعفاً وخوراً واستكانةً فيُذم، وبين أن يردّها ويقوي قلبه لدفعها ويجمع لها موجبات إبعادها فتشتد عزيمته ويظهر صبرٌ وتصبره فيمدح، ومن هنا فإن الله ﷻ قد نهى عباده المؤمنين عن الوهن والضعف أمام عدوهم فقال: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ

(١) زاد المعاد: (٣ / ٢٢٥).

مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِنَّ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ ﴿١﴾ [آل عمران: ١٣٩-١٤٠]، وقال ﷺ: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي أَيْبَغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلُمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلُمُونَ كَمَا تَأْلُمُونَ﴾ [النساء: ١٠٤]، وقال ﷺ: ﴿فَلَا تَهِنُوا وَتَدْعُوا إِلَى السَّلْمِ وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ﴾ [محمد: ٣٥]، وإنما يُنهي المرء عن فعلٍ هو قادرٌ على تركه وعدم الاتصاف به، وإلا كان تكليفاً بما لا يُطاق، ويزداد ويتأكد مدحه وحمده إن فعل ما هو ضده من الأعمال الصالحة والأوصاف الحميدة كالعزيمة والقوة والثبات هنا، ولهذا مدح الله الربيين بعدم ضعفهم لتأسي بهم ونفعل فعلهم، ونهانا عن الضعف أمام عدونا لنسلك سيرتهم.

قال العلامة أبو السعود ﷺ: «قوله ﷺ: ﴿فَمَا وَهِنُوا﴾ [آل عمران: ١٤٦] عطفٌ على قاتلٍ على أن المراد به عدم الوهن المتوقَّع من القتال كما في قولك: وعظته فلم يتعظَّ وصحَّتْ به فلم ينزجرُ فإن الإتيان بالشيء بعد ورود ما يوجب الإقلاع عنه وإن كان استمراراً عليه بحسب الظاهر، ولكنه بحسب الحقيقة صنعٌ جديدٌ مصحَّحٌ لدخول الفاء المرتبة له على ما قبله أي فما فترُوا وما انكسرت همَّتْهم ﴿لِمَا أَصَابَهُمْ﴾ [آل عمران: ١٤٦] في أثناء القتال وهو علةٌ للمنفية دون النفي»^(١).

فقد ذكر الله تعالى ثلاثة أمورٍ مذمومة لم تُصب أولئك الربيين ولم تلتصق بهم فاستحقوا المدح بنفيها عن أنفسهم، وهي الوهن، والضعف، والاستكانة، قال الإمام ابن جرير ﷺ: «يعني بقوله تعالى ذكره: ﴿فَمَا وَهِنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٤٦]؛ فما عجزوا لما نالهم من ألم الجراح الذي نالهم في سبيل الله، ولا لقتل من قُتل منهم، عن حرب أعداء الله، ولا نكلوا عن جهادهم، ﴿وَمَا ضَعُفُوا﴾ [آل عمران: ١٤٦]؛ يقول: وما ضعفت قواهم لقتل نبيهم، ﴿وَمَا أَسْتَكَانُوا﴾ [آل عمران: ١٤٦]؛ يعني وما ذلوا فيتخشعوا لعدوهم بالدخول في دينهم ومداهنتهم فيه خيفة منهم، ولكن مضوا قُدماً على بصائرهم ومنهاج نبيهم، صبراً على أمر الله وأمر نبيهم، وطاعة لله واتباعاً لتنزيله ووحية»^(٢).

وقال العلامة ابن عاشور ﷺ في ذلك: «وجمع بين الوهن والضعف، وهما متقاربان تقارباً قريباً

(١) تفسير أبي السعود: (١ / ٤٦٩).

(٢) تفسير الطبري: (٧ / ٢٦٩).

من الترادف؛ فالوهن قلة القدرة على العمل، وعلى النهوض في الأمر، وفعله... والضعف بضم الضاد وفتحها ضد القوة في البدن، وهما هنا مجازان؛ فالأول: أقرب إلى العزيمة، وديب اليأس في النفوس والفكر، والثاني: أقرب إلى الاستسلام والفشل في المقاومة، وأما الاستكانة فهي الخضوع والمذلة إذا خارت العزيمة فشلت الأعضاء، وجاء الاستسلام، فتبعه المذلة والخضوع للعدو^(١).
وقال العلامة السعدي رحمته الله: «ما ضعفت قلوبهم، ولا وهنت أبدانهم، ولا استكانوا؛ أي ذلوا لعدوهم»^(٢).

فأصبح كل سابقٍ من هذه الثلاثة كأنه سببٌ في تولّد اللاحق وحصوله، فوهن القلب وخوره وشدة جزعه يقود إلى ضعف الأعضاء عن العمل وتهاونها في القيام بالمهام وتراخيها في الاضطلاع بأعبائه، وإذا وقع ذلك انقطع دفعهم لعدوهم وانعدم قتالهم لهم فيؤدي ذلك إلى تجرؤ عدوهم واستعلائهم عليهم فيحصل الخضوع والاستسلام والاستكانة لهم.

والمقصود من ذلك أن المصائب مهما تعاضمت وتفاقت وحطت برحالها المثقلة في سوح الجهاد؛ فلا ينبغي أن تكون سبباً في التراخي والخور والوهن والفتور، ولا الانكسار أمام العدو والخضوع له، فالأمر يحتاج إلى تحملٍ وتكليفٍ وتصبرٍ تُطرد به كل تلك الأدواء القاتلة، وإلى محاربة داعي النفس وقطع أسباب التخاذل والتكاسل، وسد كل المنافذ التي يمكن أن يتسرب منها شيء إلى القلب، فمن الأسباب التي تعين على قوة القلب وإبعاد الوهن وعدم الخضوع للعدو:

الأول: دعاء المجاهدين ربّهم بأن يشبّتهم كما سيأتي فيما حكاه الله تعالى عن الرّبّيين من قولهم: ﴿وَتَبَّتْ أَقْدَامَنَا﴾ [البقرة: ٢٥٠]، وكما حكى رحمته الله عن أصحاب طالوت لما عاينوا عدوهم: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَبَّتْ أَقْدَامَنَا وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠].

(١) التحرير والتنوير: (٣ / ٢٤٤).

(٢) تفسير السعدي: (١٥١).

الثاني: الثبات في المعركة وعدم الفرار، كما قال ﷺ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا﴾ [الأَنْفَال: ٤٥]، وقال ﷺ: ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُولُوهُمْ الْأَدْبَارَ﴾ [الأَنْفَال: ١٥].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (لا تمنوا لقاء العدو وسلوا العافية فإن لقيتموهم فاثبتوا)^(١)، وروى ابن أبي شيبه^(٢) عن أبي مسافع، قال: «كتب إلينا عمر بن الخطاب ونحن مع النعمان بن مقرن: إذا لقيتم العدو فلا تفروا».

الثالث: التأسى بمن سبق من أهل العزيمة والشجاعة والمصابرة ممن عاينوا أنواع الأهوال وخالطوا ألوان المصائب، وركبوها طبقاً عن طبق، ومع ذلك لم يلينوا ولم يضعفوا ولم يورثهم كل ذلك إلا قوة وثباتاً، فقله ﷺ: ﴿وَكَايِنَ مِّنْ نَّبِيٍّ قَتَلَ مَعَهُ رِبِّيُونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا﴾ [آل عمران: ١٤٦]، جاء بعد بيان ما حلَّ بالصحابة ﷺ من الاضطراب إثر شيوع مقتل النبي ﷺ، وذلك حتى يبين لهم أن ما أصابهم قد أصاب أمثالهم من الأولين فكان عليهم أن يكونوا على طريقتهم في عدم الوهن والضعف والاستكانة، كما قال أبو حيان ﷺ: «لما كان من المؤمنين ما كان يوم أحد وعتب عليهم الله ما حذر منهم في الآيات التي تقدمت، أخبرهم بأن الأمم السالفة قتلت أنبياء لهم كثيرون أو قتل ربيون كثير معهم، فلم يلحقهم ما لحقكم من الوهن والضعف، ولا ثنهم عن القتال فُجِعَهُمْ بِقَتْلِ أَنْبِيَائِهِمْ، أو قتل ربيهم، بل مضوا قدماً في نصرة دينهم صابرين على ما حل بهم».

وقتل نبي أو أتباعه من أعظم المصائب، فكذلك كان ينبغي لكم التأسى بمن مضى من صالحى الأمم السابقة، هذا وأنتم خير الأمم، ونبىكم خير الأنبياء»^(٣).

وقال ابن عاشور ﷺ: «واعلموا أنه إذا كان هذا شأن أتباع الأنبياء، وكانت النبوة هدياً وتعليماً،

(١) أخرجه ابن أبي شيبه [٢٠٦٦١]، والبيهقي [١٨٤٦٩]، واللفظ له [وغيرهما، ولفظ الصحيحين: (فإذا لقيتموهم فاصبروا)،

[البخاري: (٢٩٦٥)، ومسلم: (١٧٤١)].

(٢) [٣٦٠٦٣].

(٣) البحر المحيط: (٤١٧ / ٣).

فلا بدع أن يكون هذا شأن أهل العلم، وأتباع الحق، ألا يوهنهم، ولا يضعفهم، ولا يخضعهم مقاوم، ولا أذى حاسد، أو جاهل»^(١).

فالتأسي بالخيار يبعث الهمم ويقوي العزم ويخفف الألم، ولهذا يخبر الله ﷻ نبيه بما كان يصيب الأنبياء قبله من شدة عداوة أقوامهم ومبالغتهم في أذاهم، وصبر الأنبياء عليهم الصلاة والسلام على كل ذلك حتى يأتيهم فرج الله وفتحته كما قال ﷻ: ﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأَوْدُوا حَتَّىٰ أَتَاهُم نَصْرًا وَلَا مُبَدِّل لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِنْ نَّبِيِّ الْأُمْرُسَلِينَ﴾ [الأنعام: ٣٤]، قال الإمام ابن كثير ﷻ عن هذه الآية: «هذه تسلية للنبي ﷺ وتعزية له فيمن كذبه من قومه، وأمر له بالصبر كما صبر أولو العزم من الرسل، ووعده بالنصر كما نصرُوا، وبالظفر حتى كانت لهم العاقبة، بعد ما نالهم من التكذيب من قومهم والأذى البليغ، ثم جاءهم النصر في الدنيا، كما لهم النصر في الآخرة»^(٢).

وقال سبحانه: ﴿وَكَلَّا نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ الرُّسُلِ مَا نُنثِثُ بِهِ فُؤَادَكَ وَجَاءَكَ فِي هَذِهِ الْحَقُّ وَمَوْعِظَةٌ وَذِكْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [هود: ١٢٠].

ومن ذلك الإكثار من قراءة مواقف الأبطال عند الشدائد، واستهانتهم بالأهوال وقت نزولها، وركوب أنواع المخاطر من غير مبالاة، واستهانتهم بغمراتها، والتأمل في قوة إصرارهم واستماتتهم أمام عدوهم وبلوغهم الذروة من المصابرة والتحدي، كما حصل للصحابة ﷺ في معركة اليمامة، وكيف تحملوا أنواع الجراح وتلافوا الانكسار وارتدى بعضهم أكفانهم تثبيتاً لنفسه وتقوية لأصحابه، واستحرق القتل في خيارهم وعلماهم وسابقيهم فما ترحزحوا ولا تراجعوا حتى فتح الله عليهم.

الرابع: مواساة النفس بما يصيب الكفار من الآلام نظير ما يصيب أهل الجهاد والإيمان، كما قال سبحانه تعالى: ﴿وَلَا تَهِنُوا فِي ابْتِغَاءِ الْقَوْمِ إِنْ تَكُونُوا تَأْلَمُونَ فَإِنَّهُمْ يَأْلَمُونَ كَمَا تَأْلَمُونَ﴾ [النساء: ١٠٤]، قال

(١) التحرير والتنوير: (٣/ ٢٤٤).

(٢) تفسير ابن كثير: (٣/ ٢٥٢).

العلامة السعدي رحمته الله في هذه الآية: «أي: لا تضعفوا ولا تكسلوا في ابتغاء عدوكم من الكفار؛ أي: في جهادهم والمرابطة على ذلك، فإن وَهَنَ القلب مستدعٍ لَوَهْنِ البدن، وذلك يضعف عن مقاومة الأعداء، بل كونوا أقوياء نشيطين في قتالهم.

ثم ذكر ما يقوي قلوب المؤمنين، فذكر شيئين:

الأول: أن ما يصيبكم من الألم والتعب والجراح ونحو ذلك فإنه يصيب أعداءكم، فليس من المروءة الإنسانية والشهامة الإسلامية أن تكونوا أضعف منهم، وأنتم وإياهم قد تساويتم فيما يوجب ذلك؛ لأن العادة الجارية لا يضعف إلا من توالى عليه الآلام وانتصر عليه الأعداء على الدوام، لا من يدال مرة، ويدال عليه أخرى..»^(١).

وقال سيد قطب رحمته الله: «إذا أصر الكفار على المعركة، فما أجدر المؤمنين أن يكونوا هم أشد إصرارًا، وإذا احتمل الكفار آلامها، فما أجدر المؤمنين بالصبر على ما ينالهم من آلام، وما أجدرهم كذلك أن لا يكفوا عن ابتغاء القوم ومتابعتهم بالقتال، وتعقب آثارهم، حتى لا تبقى لهم قوة، وحتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله»^(٢).

وقال العلامة الرازي رحمته الله: «والمعنى أن حصول الألم قدر مشترك بينكم وبينهم، فلما لم يصر خوف الألم مانعًا لهم عن قتالكم فكيف صار مانعًا لكم عن قتالهم»^(٣).

وقال رحمته الله أيضًا: ﴿وَلَا تَهِنُوا وَلَا تَحْزَنُوا وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ ﴿١٣٩﴾ إِنْ يَمَسُّكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُ وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٣٩-١٤٠].

الخامس: الطمع فيما أعده الله رحمته الله لعباده المجاهدين الصابرين، واليقين بأن الأجر على قدر ما يعانونه من الشدة والبلاء والضيق، وهذا فارقٌ عظيمٌ بينهم وبين أعدائهم، فإن أولئك اجتمع عليهم آلام الدنيا ومصائبها وخسران الآخرة وعذابها، فهم خاسرون على كل حال، أما المؤمنون فلهم في

(١) تفسير السعدي: (١٩٩).

(٢) في ظلال القرآن: (٢ / ٢٢٩).

(٣) تفسير الرازي: (٥ / ٣٦٨).

كل صبرٍ أجر، وفي كل مصابٍ ثواب، وما بقي لهم عند ربهم خيرٌ مما فاتهم في دنياهم، وما يستقبلهم من أمر الآخرة أفضل مما خلفهم من أمر الدنيا، كما قال تعالى في الآية السابقة مشجعاً عباده المؤمنين: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾ [النساء: ١٠٤].

وقد نقلت بعض ما ذكره العلامة السعدي عما يقوي قلوب المؤمنين وتكملته في قوله: «... الأمر الثاني: أنكم ترجون من الله ما لا يرجون، فترجون الفوز بثوابه والنجاة من عقابه، بل خواص المؤمنين لهم مقاصد عالية وآمال رفيعة من نصر دين الله، وإقامة شرعه، واتساع دائرة الإسلام، وهداية الضالين، وقمع أعداء الدين، فهذه الأمور توجب للمؤمن المصدق زيادة القوة، وتضاعف النشاط والشجاعة التامة؛ لأن من يقاتل ويصبر على نيل عزه الدنيوي إن ناله، ليس كمن يقاتل لنيل السعادة الدنيوية والأخروية، والفوز برضوان الله وجنته، فسبحان من فاوت بين العباد وفرق بينهم بعلمه وحكمته، ولهذا قال: ﴿وَكَانَ اللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا﴾، كامل العلم كامل الحكمة»^(١).

وقال العلامة الشوكاني رحمته: «ومع ذلك فلکم عليهم مزية لا توجد فيهم، وهي: أنكم ترجون من الله من الأجر وعظيم الجزاء ما لا يرجونه لكفرهم وجحودهم، فأنتم أحق بالصبر منهم، وأولى بعدم الضعف منهم، فإن أنفسكم قوية؛ لأنها ترى الموت مغنماً، وهم يرونه مغرمًا»^(٢).

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلَّا إِحْدَى الْحُسَيْنَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمْ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِّنْ عِنْدِهِ أَوْ بِأَيْدِينَا فَتَرَبَّصُوا إِنَّا مَعَكُمْ مُتَرَبِّصُونَ﴾ [التوبة: ٥٢].

وعن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: (ما من غازية، أو سرية تغزو فتغنم وتسلم، إلا كانوا قد تعجلوا ثلثي أجورهم، وما من غازية أو سرية تخفق وتصاب إلا تم لهم أجورهم)^(٣).

السادس: الحذر الشديد من معصية الله تعالى، والخوف من الوقوع في شيءٍ منها أو الاستهانة

(١) تفسير السعدي: (١٩٩).

(٢) فتح القدير: (٢ / ٢٠٧).

(٣) رواه مسلم [١٩٠٦].

بها، كما قال تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ١٥٥]، قال العلامة السعدي رحمه الله: «يخبر تعالى عن حال الذين انهزموا يوم «أحد» وما الذي أوجب لهم الفرار، وأنه من تسويل الشيطان، وأنه تسلط عليهم ببعض ذنوبهم. فهم الذين أدخلوه على أنفسهم، ومكنوه بما فعلوا من المعاصي، لأنها مركبه ومدخله، فلو اعتصموا بطاعة ربهم لما كان له عليهم من سلطان»^(١).

ومن المعاصي التي توجب الفشل والضعف التنازع والتفرق ومخالفة أمر الأمراء والتحايل في التنصل منه كما قال تعالى: ﴿وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]، قال الإمام الطبري رحمه الله: «ولا تختلفوا فتفرقوا وتختلف قلوبكم ﴿فَتَفْشَلُوا﴾ [الأنفال: ٤٦]، يقول: فتضعفوا وتجنبوا»^(٢).

وكان بعض السلف يقول إن جزاء الحسنة حسنة بعدها، وجزاء السيئة سيئة بعدها، ومن تأمل هذه الآية لمح فيها هذا المعنى، فالتنازع والتفرق والاختلاف معصية لله تعالى وهذه كلها إنما تقع بالأقوال والأفعال وإن كان أصل مصدرها تنافر القلوب أو قد تكون مفضية إلى تنافرها لعلاقة الباطن بالظاهر كما كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول: (لا تختلفوا فتختلف قلوبكم)^(٣)، وكذلك قوله: (إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح الجسد كله، وإذا فسدت فسد الجسد كله، ألا وهي القلب)^(٤)، ولكن الله صلى الله عليه وسلم جعل من عقوبة اختلافهم فشلهم أي جنبهم كما فسر غير واحد من العلماء الفشل في الآية بالجنب، والجنب محله القلب وإنما تظهر آثاره على أعمال الإنسان، فإذا حصل الفشل وتمكن الجنب في القلب ذهبت الريح أي القوة وتمكّن الأعداء، فانظر -رحمك الله- شؤم الاختلاف وعواقبه على المرء وعلى إخوانه.

(١) تفسير السعدي: (١٥٣).

(٢) تفسير الطبري: (١٣ / ٥٧٥).

(٣) [رواه أحمد: (١٨٥١٦)، وأبو داود: (٦٦٤)، وصححه الألباني].

(٤) [رواه البخاري: (٥٢)، ومسلم: (١٥٩٩)، وغيرهما].

وأنقل هنا كلامًا قيمًا للعلامة ابن عاشور رحمته الله حول آية الأنفال المذكورة: «وأما النهي عن التنازع فهو يقتضي الأمر بتحصيل أسباب ذلك: بالتفاهم، والتشاور، ومراجعة بعضهم بعضًا، حتى يصدروا عن رأي واحد، فإن تنازعوا في شيء رجعوا إلى أمرائهم لقوله تعالى: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ﴾ [النساء: ٨٣]، وقوله تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَزَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ [النساء: ٥٩].

والنهي عن التنازع أعم من الأمر بالطاعة لولاة الأمور: لأنهم إذا نهوا عن التنازع بينهم فالتنازع مع ولي الأمر أولى بالنهي.

ولما كان التنازع من شأنه أن ينشأ عن اختلاف الآراء، وهو أمر مرتكز في الفطرة بسط القرآن القول فيه بيان سيئ آثاره، فجاء بالتفريع بالفاء في قوله تعالى: ﴿فَتَفَشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ﴾ [الأنفال: ٤٦]، فحذرهم أمرين معلوما سوء مغبتهما: وهما الفشل وذهاب الريح.

والفشل: انحطاط القوة وقد تقدم أنفا عند قوله: ﴿وَلَوْ أَرْنَكْهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ﴾ [الأنفال: ٤٣] وهو هنا مراد به حقيقة الفشل في خصوص القتال ومدافعة العدو، ويصح أن يكون تمثيلاً لحال المتقاعس عن القتال بحال من خارت قوته وفشلت أعضاؤه، في انعدام إقدامه على العمل. وإنما كان التنازع مفضيا إلى الفشل لأنه يثير التخاصب ويزيل التعاون بين القوم، ويحدث فيهم أن يتربص بعضهم ببعض الدوائر، فيحدث في نفوسهم الاشتغال باتقاء بعضهم بعضًا، وتوقع عدم إلقاء النصير عند مآزق القتال، فيصرف الأمة عن التوجه إلى شغل واحد فيما فيه نفع جميعهم، ويصرف الجيش عن الإقدام على أعدائهم، فيتمكن منهم العدو، كما قال ربنا رحمته الله في سورة آل عمران: ﴿حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ﴾ [آل عمران: ١٥٢] ^(١).

هذا ومن أسباب اجتماع كلمة الأمة اشتغالها بالجهاد حقيقةً، كما أن من دواعي تفرقها تركها له، وهذا كما يلحق الأمة عموماً فهو عن المجاهدين ليس ببعيد، فحيث اشتغلوا بالجهاد وتحصيل

(١) التحرير والتنوير: (٩ / ١٢٣).

أسبابه من إعدادٍ وتدريبٍ، ومقارعة لأعدائهم ألف الله بين قلوبهم وجمع كلمتهم ووحد صفوفهم فازدادوا قوة إلى قوتهم، وحيث اشتغلوا ببنيات الطريق وألتهتهم هيشات الأسواق وأماتوا أوقاتهم في جلسات القيل والقال دب بينهم الخلاف وسرى في جماعتهم التنافر والتدابير فما أعجل تسلط أعدائهم عليهم حينئذٍ، قال شيخ الإسلام رحمته الله في رسالته للسلطان: «ومتى جاهدت الأمة عدوها ألف الله بين قلوبها، وإن تركت الجهاد شغل بعضها ببعض»^(١).



(١) [جامع المسائل: (٥/٣٠٠)].

الوقف الرابع

في قوله ﷺ في الآية الكريمة: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، إشارة إلى أن أولئك الربيين ممدوحون بما نفاه عنهم من عدم الوهن والضعف والاستكانة، وممدوحون أيضًا بما قابل ذلك من الصبر على الشدة التي لا قوها من عدوهم، ثم أثبت الله لهم محبته بصبرهم ذلك، ومع عموم هذه المحبة للصابرين إلا أن سياقها يدل على أن الربيين كانوا منهم وأولى الداخلين فيهم، كما قال العلامة الألوسي رحمه الله: «﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦] على مقاساة الشدائد ومعاناة المكاره في سبيله فينصرهم ويعظم قدرهم، والمراد بالصابرين إما الربيون، والإظهار في موضع الإضمار للتصريح بالثناء عليهم بالصبر الذي هو ملاك الأمر مع الإشعار بعلّة الحكم، وإما ما يعمهم وغيرهم وهم داخلون في ذلك دخولًا أوليًا»^(١).

وقال الإمام الطبري رحمه الله: «﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٦]؛ يقول: والله يحب هؤلاء وأمثالهم من الصابرين لأمره وطاعته وطاعة رسوله في جهاد عدوه، لا مَنْ فشل ففرّ عن عدوه، ولا من انقلب على عقبيه فذلّ لعدوه لأنّ قُتِلَ نبيه أو مات، ولا مَنْ دخله وهن عن عدوه، وضعفٌ لفقد نبيه»^(٢).

وهذا مما يهون المصائب ويُنسي صاحبها مرارته بل ربما انقلب راحة وحلاوةً وهناءً إن استحضر من قلبه واستيقن أن تحمّله لتلك الشدائد وتجلده أمامها يدخله في زمرة المحبوبين عند الله تعالى، فأبي مطلب وراء هذا المطلب، وأية منقبة فوق هذه المنقبة، نسأل الله أن يجعلنا ممن يحبهم ويحبونهم.

(١) تفسير الألوسي: (٣ / ٢٥٦).

(٢) تفسير الطبري: (٧ / ٢٧٠).

كما أن الآية تشير إلى أن سبيل الجهاد لا بد له من صبر على مكارهه ومكابدة لمطالبه وجلده على مَضّ نوازله ثم مصابرة على تعنت أعدائه ومعاندتهم، وذلك لأنه مظنة نزول الشدائد وحلول الجراح ومعالجة المشاق فاحتاج سالكه إلى معرفة كل ذلك ليتخذ صبره عليه عدة يسلك بها دروبه على بينة وثبت، ولا يكون دخوله لساحاته بمجرد طفرة حماسة متقدة تخبو عند مواجهة الحقائق والنزول إلى ميدان العمل ومداخلة صنوف المشكلات، ففيه قتل وجرح، وانكسار وهزيمة، وجوع وفقر، وخوف وتخطف، وأسفارٍ وحصارٍ، إذ تتزلزل النفوس وتبلغ فيه القلوب الحناجر، وتدور الأعين كحال المغشي عليه من الموت، وغير ذلك مما جمعه قوله ﷺ: ﴿وَهُوَ كُرَّةٌ لَكُمْ﴾ [البقرة: ٢١٦]، وقال ﷺ: ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ لَا يُصِيبُهُمْ ظَمَأٌ وَلَا نَصَبٌ وَلَا مَخْمَصَةٌ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَطْئُونَ مَوْطِئًا يَغِيظُ الْكُفَّارَ وَلَا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوِّ نَيْلًا إِلَّا كُتِبَ لَهُمْ بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ إِنَّ اللَّهَ لَا يُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ [التوبة: ١٢٠].

فلا غرو إذن أن حاجة المجاهد إلى الصبر أشد ما تكون في كل لحظة من لحظاته وعقبته من عقباته، ومن هنا جاء في الكتاب العزيز الأمر به والحث عليه والترغيب فيه ومدح أهله في مواطن عدة كما قال ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا أَصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠]، ويبيّن لنا الله ﷻ أن الصبر مما يستعان به على تخفيف الكروب وتجاوز المحن فقال ﷺ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٣]، وقال سبحانه أيضًا: ﴿وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَاةِ إِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَاشِعِينَ﴾ [البقرة: ٤٥]، وقال ﷻ في معيته الخاصة لعباده المؤمنين الصابرين: ﴿وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأنفال: ٤٦]، وقال ﷺ: ﴿وَلَتَبْلُوَنَّكُمْ بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ الْأَمْوَالِ وَالْأَنْفُسِ وَالثَّمَرَاتِ وَبَشِّرِ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ١٥٥].

وأخبرنا ﷻ بأنه يمتحن عباده المؤمنين ليعلم المجاهدين منهم ويعلم الصابرين وذلك في سياق آيات غزوة أحد فقال ﷺ: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تُدْخَلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٢]، والآيات في ذلك كثيرة جدًا.

وبالصبر يتنزل النصر كما قال ﷺ في قصة أصحاب طالوت: ﴿كَم مِّن فِتْنَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً

يَاذِنِ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿البقرة: ٢٤٩﴾، وقال ﷺ: ﴿إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ﴾ [الأَنْفَال: ٦٥]، وفي الآية التي بعدها: ﴿فَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ مِئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ يَاذِنِ اللَّهُ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [الأَنْفَال: ٦٦]، وقال النبي ﷺ: (وَأَنَّ النَّصْرَ مَعَ الصَّبْرِ) (١).

وروى ابن أبي الدنيا عن ربيعي بن حراش أن عمر قال لأشياخ من بني عبس: «بم كنتم تغلبون الناس؟ قالوا: بالصبر، لم نلق قوماً إلا صبرنا لهم ما صبروا لنا» (٢).

«وقال بعض السلف: كلنا يكره الموت وألم الجراح، ولكن نتفاضل بالصبر. وقال البطال: الشجاعة صبر ساعة» (٣).

فهؤلاء الربيون قد طردوا عنهم الوهن وأبعدوا الضعف ودفعوا الاستكانة بصبرهم على مر ما ذاقوا وتجلدهم أمام عدوهم، ومما أعانهم على الصبر علمهم أن كل ما أصابهم إنما هو في سبيل الله كما قال تعالى: ﴿لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [آل عمران: ١٤٦]، فلما أيقنوا أن ما يلاقونه إنما هو في طريق طاعة الله ورجاء ثوابه ونيل مرضاته هانت عليهم الجروح وذابت في بحر يقينهم الهموم فكان تحصيل صبرهم على كل ذلك يسيراً، وفي هذا شيء من المعنى الذي ذكرنا سابقاً في قوله تعالى: ﴿وَتَرْجُونَ مِنَ اللَّهِ مَا لَا يَرْجُونَ﴾ [النساء: ١٠٤]، وهذا كما روى البخاري ومسلم عن جندب بن سفيان: أن رسول الله ﷺ كان في بعض المشاهد وقد دميت إصبغه فقال: (هل أنت إلا إصبع دميت وفي سبيل الله ما لقيت) (٤).



(١) رواه أحمد [٢٨٠٣]، وصححه الأرئوط.

(٢) [الصبر والثواب عليه: (٩٣)].

(٣) جامع العلوم والحكم: (١٩٥).

(٤) [البخاري: (٢٨٠٢)، ومسلم: (١٧٩٦)].

الرفقة الخامسة

لما نزل بأولئك الربيين ما نزل من المصاب، وكابدوا الشدائد وصبروا لها، عَلِمُوا أَنْ كُلِّ مَا أَصَابَهُمْ إِنَّمَا هُوَ بِذُنُوبِهِمْ - هذا وهم أصحاب الأنبياء - فبادروا إلى الاستغفار، وأشغلوا ألسنتهم به حتى لكأنهم لم ينطقوا بغيره ولم ينصرفوا لسواه كما أخبر الله ﷺ عنهم بقوله: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾ [آل عمران: ١٤٧]، فجمعوا بذلك بين صلاح الظاهر والباطن سواء في أعمالهم وأقوالهم وقلوبهم، فأما أعمالهم فإنهم ما وهنوا لعدوهم ولا ضعفوا أمامهم ولا استكانوا له ونالوا محبة الله بصبرهم، وأما صلاح أقوالهم فكثرة استغفارهم واعترافهم بذنوبهم واتهامهم لأنفسهم، وهذا دليل على صلاح قلوبهم وما فيها من التواضع والخضوع والانكسار والتوبة لله ﷻ.

فما أحوجنا - حقاً - لأن نأتسي بهؤلاء الخيار في هذه الخصال، ونرجع إلى أنفسنا فنتهمها عند الابتلاء بالمصائب - ومنها تسلط الأعداء - فتتوب توبةً نصوحاً ونعلم أن ما أصابنا فيما كسبت أيدينا ويعفو عن كثير، فنكون أقوياء أشداء جلداء ثابتين صابرين أمام عدونا، ومتواضعين خاضعين منكسرين بين يدي ربنا تلهج ألسنتنا بالاستغفار، والاعتراف بالتقصير، والإقرار بالذنوب بل والإسراف فيها اقتداءً بهؤلاء الأبرار الذين صحبوا الأنبياء ونالوا من ربهم المدح والثناء، فما اغتروا ولا زهوا ولا بطروا.

قال العلامة ابن عطية رحمته الله: «واستغفار هؤلاء القوم الممدوحين في هذا الموطن ينحو إلى أنهم رأوا ما نزل من مصائب الدنيا إنما هو بذنوب من البشر»^(١).

قال شيخ الإسلام رحمته الله عن الآية المذكورة: «فجمعوا بين الصبر والاستغفار، وهذا هو المأمور به

(١) المحرر الوجيز: (٢/ ٢٢).

في المصائب: الصبر عليها والاستغفار من الذنوب التي كانت سببها.

والقتال كثيراً ما يقاتل الإنسان فيه لغير الله كالذي يقاتل شجاعة، ويقاقل حمية، ويقاقل رياء. فهذا كله ذنوب، والذي يقاتل لله قد يسرف فيقتل من لا يستحق القتل، ويعاقب الكفار بأشد مما أمر به^(١).

وقال أيضاً: «فما وهن المؤمنون لما أصابهم بقتله وما ضعفوا، وما استكانوا، والله يحب الصابرين، ولكن استغفروا لذنوبهم التي بها تحصل المصائب - فما أصابهم من سيئة فمن أنفسهم - وسألوا الله أن يغفر لهم، وأن يثبت أقدامهم، فيثبتهم على الإيمان والجهاد لئلا يرتابوا، ولا ينكلوا عن الجهاد»^(٢).

وقال عليه السلام: «وقد أخبر سبحانه أن كثيراً من الأنبياء قتل معه ربيون كثير أي ألوف كثيرة وأنهم ما ضعفوا ولا استكانوا لذلك، بل استغفروا من ذنوبهم التي كانت سبب ظهور العدو»^(٣).

وقال الإمام ابن القيم عليه السلام: «لما علم القوم أن العدو إنما يدال عليهم بذنوبهم، وأن الشيطان إنما يستزلهم ويهزمهم بها، وأنها نوعان: تقصير في حق أو تجاوز لحد، وأن النصره منوطة بالطاعة، قالوا: ربنا اغفر لنا ذنوبنا وإسرافنا في أمرنا..»^(٤).

وقال العلامة الرازي عليه السلام: «إنما قدموا قولهم: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾ [آل عمران: ١٤٧]؛ لأنه تعالى لما ضمن النصره للمؤمنين، فإذا لم تحصل النصره وظهر أمارات استيلاء العدو، دل ذلك ظاهراً على صدور ذنب وتقصير من المؤمنين؛ فلهذا المعنى يجب عليهم تقديم التوبة والاستغفار على طلب النصره، فبين تعالى أنهم بدأوا بالتوبة عن كل المعاصي وهو المراد بقوله: ﴿رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا﴾ فدخل فيه كل الذنوب، سواء كانت من الصغائر أو من الكبائر، ثم إنهم

(١) مجموع الفتاوى: (١١ / ٦٩٤).

(٢) مجموع الفتاوى: (١٤ / ٣٧٤).

(٣) الجواب الصحيح: (٦ / ٤١٥).

(٤) زاد المعاد: (٣ / ٢٢٥).

خصوصاً الذنوب العظيمة الكبيرة منها بالذكر بعد ذلك لعظمتها وعظمت عقابها وهو المراد من قوله: ﴿وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾؛ لأن الإسراف في كل شيء هو الإفراط فيه^(١).

وقد ذكرنا من قبل أن من أسباب تحصيل القوة ودفع الهوان والضعف الانكفاف عن المعاصي، فارتكابها والاستهانة بها والإسراف فيها أيضاً من أعظم أسباب الهزائم والخذلان، فبجانب إعداد القوة والتهيؤ لملاقاة العدو والصبر في منازلته يتعيّن على المجاهدين أن يستغفروا ربهم ويتوبوا إليه، ويتهموا أنفسهم في كل ما يحقّق بهم، وليحذروا العجب والغرور، والتكبر، والفخر، وفساد النيات، وليجتنبوا ظلم الناس سواء في دمائهم أو أموالهم أو أعراضهم، واحتقار ضعفائهم، وليكن تفحصهم لأنفسهم أشد من تفحصهم لغيرهم، وليحبسوا مكبّ الناس في النار على وجوههم «اللسان» إلا بالنطق بما ينفعهم تماماً كفعل أولئك الربيين الذين لم يكن لهم قول - وهم بين الضرب والطعن - إلا الاشتغال بالاستغفار مع هضمهم لأنفسهم واتهامهم لأعمالهم، وهذا يعني أن التوبة من الذنوب واستغفار الله من اقترافها يجب أن تكون ملاصقة للإنسان في كل أحيائه سواء قبل القتال أو أثناءه أو بعده.

وكذلك ينبغي أن يكون أهل الجهاد جميعاً، فليقدّموا توبتهم الصادقة وكثرة استغفارهم على طلبهم نصرّة ربهم وتثبيت أقدامهم فالتخلية قبل التحلية، ثم ليداوموا على ذلك ويجعلوه هجّيراهم حتى يلازمهم الصفاء والنقاء والزكاء فينالوا محبة الله بصبرهم في قتالهم وتوبتهم من ذنوبهم فحريّ بهم أنذاك أن يكونوا أهلاً لتنزل نصرّة ربهم، فإن الله يحب الصابرين ويحب التوايين، وعليهم أن لا يحتقروا من الذنوب شيئاً سواء منها الظاهرة كالظلم وسفك الدم بغير حق أو أخذ أموال الناس بالباطل أو التقاطع والتهاجر على أمور الدنيا أو الذنوب الباطنة كالعجب، واحتقار الناس، والترّفّع وغير ذلك.

وقد رأينا ما حلّ بالصحابة رضوان الله عليهم - وبينهم رسول الله ﷺ - حينما خالفوا أمره،

(١) تفسير الرازي: (٤ / ٤٠٨).

فكانت الهزيمة بعد النصر والغم بعد الفرح كما قال ﷺ: ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُمْ بِإِذْنِهِ حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَزَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُمْ مِمَّن بَعْدَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْكُمْ مَا تُحِبُّونَ مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنْكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، وقال ﷺ: ﴿أَوْلَمَّا أَصَبْتُمْ مُمْسِيَةً قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [آل عمران: ١٦٥]، فهذا في أمرٍ ظاهرٍ قد ارتكبه بعضهم، فكانت المصيبة شاملةً لهم.

وقال تعالى: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبْتَكُمْ كَثَرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥].

قال الإمام ابن تيمية ﷺ: «وظهور الكفار على المؤمنين أحياناً هو بسبب ذنوب المسلمين كيوم أحد، فإن تابوا انتصروا على الكفار وكانت العاقبة لهم، كما قد جرى مثل هذا للمسلمين في عامة ملاحمهم مع الكفار، وهذا من آيات النبوة وأعلامها ودلائلها، فإن النبي إذا قاموا بعهوده ووصاياه، نصرهم الله وأظهرهم على المخالفين له، فإذا ضيعوا عهوده ظهر أولئك عليهم، فمدار النصر والظهور مع متابعة النبي وجوداً وهدماً من غير سبب يزاحم ذلك»^(١).

وقال أيضاً: «وقد قال ﷺ: ﴿وَلَوْ قَتَلَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوَلَّوْا الْأَدْبَرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وِلِيًّا وَلَا نَصِيرًا﴾ ﷻ سُنَّةَ اللَّهِ الَّتِي قَدْ حَلَّتْ مِنْ قَبْلُ وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللَّهِ تَبْدِيلًا﴾ [الفتح: ٢٢-٢٣]؛ فأخبر أن سنة الله التي لا تبديل لها نصر المؤمنين على الكافرين، والإيمان المستلزم لذلك يتضمن طاعة الله ورسوله، فإذا نقض الإيمان بالمعاصي كان الأمر بحسبه كما جرى يوم أحد»^(٢)، والله تعالى أعلم.



(١) الجواب الصحيح: (٦ / ٤١٥).

(٢) [الجواب الصحيح: (٦ / ٤١٩)].

الرفقة السادسة

أن أولئك الربيين ما سألوا الله تثبيت الأقدام والنصرَ على الكافرين إلا بعد استغفارهم من ذنوبهم، وذلك من تمام معرفتهم بربهم وأدبهم معه ﷺ، فقدّموا الإقرار بالذنوب والتوبة منها لعلمهم بأنها سبب ما لحقهم من المصائب، وليكونوا بكثرة استغفارهم أهلاً لاستجابة الله لدعائهم ومحلاً لتثبيتته أقدامهم وتنزيل نصره عليهم، فقال ﷺ عنهم: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧].

فدعوا بثلاث دعوات:

الأولى: أن يغفر الله لهم ذنوبهم وإسرافهم في أمرهم وقد مر الكلام على ذلك.

الثانية: أن يثبت الله أقدامهم عند لقاءهم لعدوهم.

الثالثة: أن يُنزل نصره عليهم.

فكل دعواتهم تدل على قوة تعلقهم بربهم، وردّهم للأمر وتفويضها كلها إليه، وتبرُّئهم من حولهم وقوتهم، وتيقنهم أن النصر إنما هو من عند الله تعالى، وهذا مما يدل على رسوخ توحيدهم وأنهم قد حازوا منه أعلى المقامات.

قال العلامة الرازي ﷺ: «وأما المذكورون في هذه الآية فإنهم لم يذكرُوا في أنفسهم إلا الذنب والقصور، وهو المراد من قوله: ﴿اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا﴾ [آل عمران: ١٤٧]، ولم يروا التدبير والنصرة والإعانة إلا من ربهم، وهو المراد بقوله: ﴿وَتَثَبَّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧]، فكان مقام هؤلاء في العبودية في غاية الكمال»^(١).

وقال الأستاذ سيد قطب ﷺ: «وإلى هنا كان السياق قد رسم الصورة الظاهرة لهؤلاء المؤمنين في موقفهم من الشدة والابتلاء، فهو يمضي بعدها ليرسم الصورة الباطنة لنفوسهم ومشاعرهم،

(١) مفاتيح الغيب: (٢٥/٩).

صورة الأدب في حق الله وهم يواجهون الهول الذي يذهل النفوس ويقيدها بالخطر الراهق لا تتعداه، ولكنه لا يذهل نفوس المؤمنين عن التوجه إلى الله... لا لتطلب النصر أول ما تطلب - وهو ما يتبادر عادة إلى النفوس - ولكن لتطلب العفو والمغفرة، ولتعترف بالذنب والخطيئة قبل أن تطلب الثبات والنصر على الأعداء: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلُهُمْ إِلَّا أَنْ قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧].

إنهم لم يطلبوا نعمة ولا ثراء، بل لم يطلبوا ثواباً ولا جزاء... لم يطلبوا ثواب الدنيا ولا ثواب الآخرة، لقد كانوا أكثر أدباً مع الله وهم يتوجهون إليه بينما هم يقاتلون في سبيله، فلم يطلبوا منه - سبحانه - إلا غفران الذنوب وتثبيت الأقدام... والنصر على الكفار، فحتى النصر لا يطلبونه لأنفسهم، إنما يطلبونه هزيمة للكفر وعقوبة للكفار... إنه الأدب اللائق بالمؤمنين في حق الله الكريم^(١).

فمع إخبار الله تعالى عنهم بأنهم ما وهنوا لما أصابهم ولا ضعفوا ولا استكانوا إلا أن دعوتهم بأن يثبت الله أقدامهم يدل على أنهم لم يغتروا بقوتهم ولم يتكبروا على عزيمتهم أو يتعلّقوا بصبرهم وإنما لزموا دعاءهم لربهم بأن يثبت أقدامهم في أرض المعركة حتى لا تنقلب قوتهم ضعفاً وعزيمتهم خوراً وصبرهم جزعاً، فكانوا مظهرين الفقر لله تعالى معترفين بحاجتهم إليه في كل لحظة من لحظاتهم، خائفين أن يكلهم إلى أنفسهم فيهلكوا، وهذا نظير ما ذكره الله ﷻ عن أصحاب طالوت: ﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٥٠].

قال العلامة السعدي رحمته: «ثم إنهم لم يتكبروا على ما بذلوا جهدهم به من الصبر، بل اعتمدوا على الله، وسألوه أن يثبت أقدامهم عند ملاقاته الأعداء الكافرين، وأن ينصرهم عليهم، فجمعوا بين الصبر وترك ضده، والتوبة والاستغفار، والاستنصار بربهم، لا جرم أن الله نصرهم، وجعل لهم

(١) في ظلال القرآن: (١ / ٤٦٢).

العاقبة في الدنيا والآخرة»^(١).

ثم لم يكتفوا بسؤالهم لله ﷻ بأن يثبت أقدامهم، بل علموا أن ذلك وحده لا يحصل النصر ما لم يأذن به الله، فلذا كملوا دعاءهم بأن سألوا ربهم النصر على عدوه وعدوهم، فهو اعترافٌ منهم بتمام قدرة الله وكمال قوته وعزته سبحانه وأن الأمر كله إليه والتدبير منه، فلما تمكّن ذلك في قلوبهم وقطعوا به قطعاً لا ريب فيه شعروا بمعية الله لهم فاستصغروا قوة عدوهم لا سيما وأنهم كافرون، هذا مع بقاء حسن ظنهم بربهم فرغم ما حل بهم من المصاب واستحرار القتل إلا أن طمعهم في تنزل النصر من ربهم لم ينقطع أو يرتفع. فقولهم: ﴿وَأَنْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٧] في حكم قولهم: نحن عبادك الذين آمنوا بك وصدّقوا رسلك واتبعوا شرعك اللهم فنصرك على هؤلاء الذين كفروا بك وبدينك وبأبيائك، فانصرنا بإيماننا واخذلهم بكفرهم، وهذا كما روي عن النبي ﷺ يوم بدر أنه قال: (اللهم هذه قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تحادك وتكذب رسولك، اللهم فنصرك الذي وعدتني، اللهم أحنهم الغداة)^(٢).

وقد تكرر في كتاب الله تعالى كثيراً بيان أن النصر إنما هو من عند الله كما قال ﷻ: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرْكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠]، وقال سبحانه: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ﴾ [محمد: ٧]، وقال ﷻ: ﴿وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِنْدِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ [آل عمران: ١٢٦]، وغير ذلك من الآيات.

فما دام تثبيت القلوب والأقدام من عند الله، ولا حيلة في تحصيل النصر إلا بإذنه سبحانه فلم لا يكون ديدن أهل الجهاد التزام دعاء هؤلاء الربييين الذين مدحهم ربهم، وجعلهم أسوة لهم لينالوا ما نالوا من حسن العاقبة في الدنيا والآخرة؟



(١) تفسير السعدي: (١٥١).

(٢) [رواه بهذا اللفظ الواقي في المغازي: (٥٩/١)، وابن هشام في السيرة النبوية: (١٩٢/٢)، والطبري في تاريخه: (٤٤١/٢)، وورد

مختصراً في صحيح البخاري: (٣٩٥٣)، وصحيح مسلم: (١٧٤٣)].

الرفقة السابعة

بدأت معركة هؤلاء الربيين مع أعدائهم بكثرة القتل فيهم وشدة المصائب عليهم، فتوسطوا وقابلوها بقوة قلوبهم وصرامة عزمهم واستمرار صبرهم، وقطعوا مسيرتها بتوبتهم واستغفارهم وإلحاحهم على ربهم بأن يثبت أقدامهم ويحقق نصرهم: ﴿فَقَاتِلْهُمْ اللَّهُ ثَوَابِ الدُّنْيَا وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٨]، قال العلماء: «﴿ثَوَابِ الدُّنْيَا﴾ [آل عمران: ١٤٨]؛ النصر والغنيمة، ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ﴾ [آل عمران: ١٤٨]؛ الجنة ونعيمها»، كما قال الإمام ابن جرير رحمته الله: «يعني بذلك تعالى ذكره: فأعطى الله الذين وصفهم بما وصفهم، من الصبر على طاعة الله بعد مقتل أنبيائهم، وعلى جهاد عدوهم، والاستعانة بالله في أمورهم، واقتنائهم مناهج إمامهم على ما أبلوا في الله ﴿ثَوَابِ الدُّنْيَا﴾ [آل عمران: ١٤٨]؛ يعني: جزاء في الدنيا، وذلك: النصر على عدوهم وعدو الله، والظفر، والفتح عليهم، والتمكين لهم في البلاد ﴿وَحُسْنَ ثَوَابِ الآخِرَةِ﴾ [آل عمران: ١٤٨]؛ يعني: وخير جزاء الآخرة على ما أسلفوا في الدنيا من أعمالهم الصالحة، وذلك: الجنة ونعيمها»^(١).

وقال العلامة الرازي رحمته الله: «﴿فَقَاتِلْهُمْ اللَّهُ﴾ [آل عمران: ١٤٨] يقتضي أنه تعالى أعطاهم الأمرين، أما ثواب الدنيا فهو النصر والغنيمة وقهر العدو والثناء الجميل، وانسراح الصدر بنور الإيمان وزوال ظلمات الشبهات وكفارة المعاصي والسيئات، وأما ثواب الآخرة فلا شك أنه هو الجنة وما فيها من المنافع واللذات وأنواع السرور والتعظيم»^(٢).

فلما أقبلوا على الله بكليتهم، وفوضوا إليه كل أمورهم، وبذلوا في سبيل دينه مهجهم، وثبتوا على طريق من قُتل من أنبيائهم وإخوانهم، وزهدوا في الدنيا وأخرجوا حبها من قلوبهم؛ أكرمهم الله سبحانه بأن أعطاهم ثواب الدنيا - ولم يقل من ثواب الدنيا - فجاءتهم بحذافيرها، ثم من عليهم بما

(١) تفسير الطبري: (٧ / ٢٧٥).

(٢) [تفسير الرازي: (٩ / ٣٨٢)].

هو خيرٌ وأبقى فاتاهم حُسن ثواب الآخرة.

وفي هذا أكبر دليلٍ على أن مَنْ سلك سبيل الجهاد والتزم أحكامه واستمسك بأدابه ظاهراً وباطناً فتحت له أبواب الخير في الدنيا والآخرة ونال سعادتهما، عكس ما يظن كثير من الناس من أن الجهاد سببٌ في الحرمان من الدنيا وطريقٌ لضياعها ومسلِكٌ مُهلكٌ.

فمَنْ جاهد في سبيل الله وابتغاء مرضاة الله غير ملتفت إلى دنيا ولا متعلق بأهداب زيتها جاءته راغمةً، ومن جعل جهاده طلباً للعلو وبحثاً عن حظوظ الدنيا الفانية وتحمل الشدائد لينال من الناس ثناءً أو ذكراً أو شهرةً خسر الدنيا والآخرة فضاع منه ما يريد وما لا يريد وكان جهاده وبالاً عليه: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الْآخِرَةِ نَزِدْ لَهُ فِي حَرْثِهِ وَمَنْ كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَا لَهُ فِي الْآخِرَةِ مِنْ نَصِيبٍ﴾ [الشورى: ٢٠].

ثم تفضّل الله ﷻ عليهم بمحبته -وهي غاية ما يُطلب- لإحسانهم كما أحبهم لصبرهم حيث قال: ﴿وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٤٨]، والتذييل هنا يدل على دخولهم في هذا الوصف الشريف دخولاً أولياً كما قال العلامة ابن عاشور: «وموقع التذييل يدل على أن المتحدث عنهم هم من الذين أحسنوا»^(١)، وفي ذلك إشارة إلى أنهم كانوا أهل يقينٍ راسخٍ وممن يعبد الله كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإنه يراه، وسيرتهم وما حكاه الله عنهم وتكرار الثناء عليهم كلها تدل على ذلك.

قال الأستاذ سيد قطب ﷻ: «وهؤلاء الذين لم يطلبوا لأنفسهم شيئاً أعطاهم الله من عنده كل شيء. أعطاهم من عنده كل ما يتمناه طلاب الدنيا وزيادة، وأعطاهم كذلك كل ما يتمناه طلاب الآخرة ويرجونه: ﴿فَعَاتَلَهُمُ اللَّهُ ثَوَابَ الدُّنْيَا وَحَسَنَ ثَوَابِ الْآخِرَةِ﴾ [آل عمران: ١٤٨].. وشهد لهم ﷻ بالإحسان، فقد أحسنوا الأدب، وأحسنوا الجهاد، وأعلن حبه لهم وهو أكبر من النعمة وأكبر من الثواب»^(٢).

(١) [التحرير والتنوير: (٤/١٢١)].

(٢) في ظلال القرآن: (١/٤٦٣).

إذن فهذه وقائع أحداث حية قصها علينا ربنا ﷺ تكاد صورتها تتكرر عبر التاريخ تطول مسيرتها أو تقصر، وقد جاءت في غاية البيان والإفصاح عن سبيل بلوغ النصر والتمكين والفتح: ﴿قَوَابِ أَلَدُنِّيَا﴾ [آل عمران: ١٤٥]، وبيّنت ما يجب أن يكون عليه المجاهدون في سيرة جهادهم ومسيرتهم، وأن نصر الله قريبٌ منهم إن هم سلكوا سنن تحصيله الشرعية منها والكونية، وأن حالهم ليس كحال أعدائهم ممن لا ترى عينه من أسباب النصر إلا الماديات الصرفة فلا يلتفتون إلى ذنب ولا إسرافٍ ولا بغي، ولا يعرفون ضعف إيمان ولا قوته، بل هم يعلمون أن وقع الذنوب والمعاصي على جيوشهم وجماعاتهم أشد وأنكى وأفتك مما تفعله القنابل والصواريخ، ومن لم يدرك هذه الحقيقة فأهملها ولم يرفع بها رأسًا، وذهب يبحث عن نصره -فقط- بين ذخائره وأسلحته وتدريباته وخططه وذكائه وخبرته غير مبالٍ بذنب يقترف ولا مكترثٍ بخطيئة ترتكب ولا ملتفتٍ إلى معاصٍ تُجترَح؛ فقد هلك وأهلك.

وقد أوصى عمر بن الخطاب ﷺ أمير جنده سعد بن أبي وقاص فكان مما جاء في وصيته: «أما بعد فإني أمرك ومن معك بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله أفضل العدة على العدو، وأقوى المكيذة في الحرب، وأمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراसा من المعاصي من احتراسكم من عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما ينصر المسلمون على عدوهم بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم يكن لنا بهم قوة، لأن عدونا ليس كعددهم، ولا عدتنا كعدتهم فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوى، وإلا نصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا واعلموا أن عليكم في سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون، فاستحيوا منهم، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله، ولا تقولوا إن عدونا شر منا فلن يسلط علينا، فرب قوم سلط عليهم من هو شر منهم، كما سلط على بني إسرائيل -لما عملوا بالمعاصي- كفار المجوس، فجاسوا خلال الديار وكان وعدًا مفعولًا، وسلوا الله العون على أنفسكم، كما تسألون النصر على

عدوكم»^(١).

فهذه دعوة خالصة إلى إخواني المجاهدين، وقد اشتد بهم الأمر، وتكالب عليهم الأعداء، وركبتهم أنواع المصائب أن يقفوا جميعاً وقفة صدقٍ يعلمها منهم ربهم يسلكون فيها سبيل هؤلاء الربانيين الذين نالوا ما نالوا من شرف الدنيا والآخرة لما أتوا البيوت من أبوابها، فالله الذي نصرهم وأعزهم وأكرمهم هو ربنا الذي نعبد سبحانه وهو ولينا ومولانا ونصيرنا نعم المولى ونعم النصير، وهو القادر على أن يكرمنا كما أكرمهم ويعزنا كما أعزهم ويعطينا كما أعطاهم، ويذل عدونا كما أذل عدوهم، إذن فلنشمر عن ساعد الجد، ولن عقد العزيمة من أعماق قلوبنا على أمورٍ ليس بعدها إلا الفتح والتمكين وكشف البلاء بإذن الله:

الأول: طرد وهن القلوب وجزعها، وإبعاد ضعف الأجساد وكسلها، وعدم الاستكانة للأعداء مهما بلغ كيدها.

الثاني: إخلاص النية لله تعالى واحتساب الأجر في كل ذلك، وجعلُ جهادنا «في سبيل الله» ولإعلاء كلمته فتهون علينا مصائبنا وتخفُّ آلامنا.

الثالث: الصبرُ على لأواء الطريق وشدائدها، وتمكين معنى (أن النصر مع الصبر) في النفوس لتقوى آمالها، مع استحضار ما أعد الله للصابرين وبشرهم به من خير الدنيا والآخرة، وما نالوه من معيته ومحبته.

الرابع: إدامة الاستغفار، مع صدق التوبة، والاعتراف أن ما أصابنا فبسبب ذنوبنا، ولنحذر من المنَّة على الله في أعمالنا، وتهوين أمر ذنوبنا باستحضار حسنة جهادنا، فذلك من تمام الخذلان والعياذ بالله.

الخامس: إظهار الافتقار إلى الله تعالى، والتبرؤ من الحول والطول، ومن ثم الحذر من العجب والغرور، والافتتان بالخبرات والفتوحات بل قل: ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء، فاجعله فضلاً من

(١) [العقد الفريد: (١/١١٧)].

ربك عليك تفلح، ولا تقل - بلسان حالك أو مقالك - إنما أوتيته على علمٍ عندي فتَهلك وتُهلك!

السادس: الإكثار من دعاء الله تعالى بأن يثبت أقدامنا ويربط على قلوبنا ويقيننا الفتن ما ظهر منها وما بطن، سواء أثناء خوض المعارك، أو باعتبار مسيرة الجهاد العامة الكبيرة التي نسلكها.

السابع: التيقن بأن النصر إنما هو من عند الله وحده، فنتضرع إليه ونلج عليه أن يعجل بإنزاله، فيعزّ أوليائه ويذل أعداءه، ويعلي كلمته ويمكّن لشريعته.



فَتَامًا وَفَتَامَهُ مَسَّكَ

وأتمم ما كتبت بكلمة ذهبية لشيخ الإسلام ابن تيمية رحمته الله عن الآية المذكورة رأيت أنها ترفع الهمة، وتقوي العزائم، وتبعث على مواصلة الطريق، وتؤمّل في حسن العاقبة لسالكي هذا الدرب اللاحب إذ يقول: «بَلْ كُلُّ مَنْ اتَّبَعَ النَّبِيَّ وَقَاتَلَ عَلَى دِينِهِ فَقَدْ قَاتَلَ مَعَهُ، وَكَذَلِكَ كُلُّ مَنْ قُتِلَ عَلَى دِينِهِ فَقَدْ قُتِلَ مَعَهُ، وَهَذَا الَّذِي فَهِمَ الصَّحَابَةُ؛ فَإِنَّ أَعْظَمَ قِتَالِهِمْ كَانَ بَعْدَ وَفَاتِهِ رحمته الله حَتَّى فَتَحُوا الْبِلَادَ شَامًا وَمِصْرًا وَعِرَاقًا وَيَمَنًا وَعَرَبًا وَعَجَمًا وَرُومًا وَمَغْرِبًا وَمَشْرِقًا، وَحِينَئِذٍ فَظَهَرَ كَثْرَةُ مَنْ قُتِلَ مَعَهُ فَإِنَّ الَّذِينَ قَاتَلُوا وَأُصِيبُوا وَهُمْ عَلَى دِينِ الْأَنْبِيَاءِ كَثِيرُونَ، وَيَكُونُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ عِبْرَةٌ لِكُلِّ الْمُؤْمِنِينَ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، فَإِنَّهُمْ كُلُّهُمْ يُقَاتِلُونَ مَعَ النَّبِيِّ رحمته الله عَلَى دِينِهِ، وَإِنْ كَانَ قَدْ مَاتَ، وَالصَّحَابَةُ الَّذِينَ يَغْزُونَ فِي السَّرَايَا وَالنَّبِيِّ لَيْسَ مَعَهُمْ: كَانُوا مَعَهُ يُقَاتِلُونَ وَهُمْ دَاخِلُونَ فِي قَوْلِهِ: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ [الفتح: ٢٩]... الآية، وَفِي قَوْلِهِ: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا مِنْ بَعْدُ وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا مَعَكُمْ﴾ [الأنفال: ٧٥]... الآية، لَيْسَ مِنْ شَرَطٍ مَنْ يَكُونُ مَعَ الْمُطَاعِ أَنْ يَكُونَ مُشَاهِدًا لِلْمُطَاعِ نَاطِرًا إِلَيْهِ»^(١).

هذا والله تعالى أعلم ولا حول ولا قوة إلا به، والحمد لله أولاً وآخراً وصلى الله على نبيه وصفيّه وخليفه محمد بن عبد الله وعلى آله وأصحابه ومن اتبعهم بإحسان إلى يوم لقاءه.

وكتبه / أبو يحيى الليبي «حسن قائد» رحمته الله

«الاثنين ١٦ / ذو القعدة / ١٤٣١ هـ»

